**بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سادتنا محمد وآله الاطهار .

1 ـ حقيقة الدعاء والادعية الماثورة :
إن الدعاء ـ في حقيقته ـ يمثل المعاني القيمة ، التي تتبلور في نفس الداعي ، ويستتبع التوجه العميق إلى الذات الالهية ، فالفناء في وجوده الواجب ، ثم الرجوع إلى عالم المادة ، لاداء مهمة الروح العليا ، روح العدالة والحق والصدق وبالتالي : الخلاص من كل العبوديات .
وفي هذا السفر السريع البطيء ، والطويل القصير ، لاحاجة إلى أي شيء ، سوى التركيز على نقطة المبدأ ، ومركز الانتهاء .
فلا يمكن أن نقيد الدعاء ـ بعد أن كان عملا روحيا ـ بأي قيد ، من زمان أو مكان أو لفظ ، ولا بأية لغة أو صيغة أو نص .
وقد رسم الامام الصادق ، أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام ، لهذه الفكرة خطة واضحة
والحق ، انا إذا أردنا أن نركز التفاتنا كاملا ، فإن كل الحواس ـ وهي ترتبط بواسطة الاعصاب بعضها بالاخرى ـ لابد أن تتجه وتلتفت سواء الحواس الخارجية وجوارحها ، أم الحواس الباطنية وقابلياتها ، وحاسة النطق ـ وهي المعبرة عن الجميع ـ وآلتها اللسان ، لابد أن تتحرك اعصابه ، فتكون كلمة الداعي حاسمة ، وتكون الفاظ الدعاء مركزة موجهة .
اليست الالفاظ تعبيرا عن مكامن الضمير ، وسرائر الوجدان ؟
اليست الكلمات النابعة عن طلبات الروح ، اصدق دليل على التركيز في التوجه والالتفات ؟ ومن يدري ? !
فلعل العبد الداعي يكون اقرب الى مولاه الجليل ، عند بعض الحالات ، وأداء بعض النغمات ، وتلاوة بعض الكلمات ، وفي بعض المقامات والاوقات ؟ دون غيرها ؟ !
إن النية الواحدة ، قد تصاغ باشكال مختلفة ، وتؤدى باساليب متنوعة ، وقد تصحبها أنغام متفاوتة .
فأيا منها نختار ؟ لنتوسل به الى هذا السر الروحي ، ونتزود منه على هذا الطريق الصعبة ، ونتوصل بسببه الى النتيجة المنشودة .
ما اروع للداعي ، لو عرف ، او تنبه الى اجمل لفظة في ابدع اسلوب ، والى اليق تعبير في ارق نغمة ، وكان دعاؤه نابعا من اعماق الضمير ، ليكون ارغب الى مقام الانس ، واقرب الى حظيرة القدس ، وآكد في تحقيق رغبات النفس .
اليس هذا هو الاحسن ، والاضمن لحصول الاجابة ؟
لكن ليس الافراط في المحافظة على اللفظ ، والتوغل في مراعاة اداء الحروف وضبط الحركات ، هدفا للمتكلم الواعي ، ولا غاية للانسان الهادف ، فضلا عن المسلم الذي يقوم بمهمة عظيمة مثل الدعاء .

ومن هنا ورد التاكيد البليغ على اتصاف الدعاء بالادب ، ويراد به « الادب العربي » في مراعاة القواعد اللغوية والنحوية والبلاغية ، إذا بلغ الداعي مرتبة عالية من العلم والمعرفة ، وبلغ من الدين والعقيدة مبلغا يحسن مثل هذا الطلب منه .

2 ـ المحافظة ، على النص الماثور :
فإذا كان الدعاء الماثور بهذه الدرجة من الضرورة ، فلابد ان تكون المحافظة عليه شديدة جدا ، ولابد ان يواظب الداعي على نصه ، كي لايتجاوزه في حرف او حركة ، وإلا لم يبلغ المنشود المترقب من ذلك الدعاء ، وقد عرفنا « أن الدعاء الملحون لا يرفع » .
وقد جاء النهي الصريح عن تجاوز نص الدعاء الماثور ، او تخطيه ، ولو بالزيادة فضلا عن النقيصة ، او بتغيير لفظ الى ما يرادفه ، او بوضع جملة مكان اخرى ، وان كانا يهدفان غرضا واحدا .
وذلك كله تقيدا بالماثور ، واداء لما ورد كما ورد .
فعن البراء بن عازب : أن النبى صلى الله عليه وآله قال : يا براء ، كيف تقول اذا اخذت مضجعك •
قال : قلت : الله ورسوله اعلم .
قال صلى الله عليه وآله : اذا اويت الى فراشك طاهرا ، فتوسد يمينك ثم قل :
« اللهم اسلمت وجهي اليلك وفوضت امري اليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة في وربة إليك ، ولا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي انزلت ، وبنبيك الذي ارسلت » .
من قالها في ليلته ثم مات ، مات على الفطرة .

ان الله عزوجل مقلب القلوب والابصار ، ولكن قل كما اقول : « يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك ».
تدل هذه الاحاديث على ان الادعية الماثورة توقيفية ، وقع التعبد بخصوص الفاظها الواردة ، وان ادنى تغيير اوتبديل في كلماتها ، او اي لحن او تحريف في حركاتها وحروفها ، وان لم يغير المعنى ، يوجب ان لا يكون اداؤه صحيحا ، فلا يتوقع منه ما يترقب منه فيما لو كان اداؤه تاما من الاثار الروحية .
وينبئك بمدى تاثير الالفاظ المختلفة للنتائج المتغايرة ، وان كان الاثر الشرعي المترتب على جميعا واحدا ، ما ورد في باب « اليمين » وهو ما رواه الكليني بسنده عن صفوان الجمال
3 ـ مشكلة تجويزهم نقل الحديث بالمعنى ؟
قد ثبت لدى علماء الحديث تجويز نقل الحديث بالمعنى :
قال الشيخ العاملي : قد ذهب جمهور السلف والخلف ، والطوائف كلها ، إلى جواز الرواية بالمعنى ، إذا قطع بأداء المعنى بعينه . . . لما رويناه بطرقنا عن محمد بن يعقوب . . . عن محمد بن مسلم ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أسمع الحديث منك ، فأزيد وأنقص ?
قال عليه السلام : إن كنت تريد معانيه ، فلا بأس.
وروينا بالسند عن داود بن فرقد ، قال :
قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أني أسمع الكلام منك ، فاريد أن أرويه كما سمعت منك ، فلا يجيء .
قال : فتتعمد ذلك ؟ قلت : لا .
قال : تريد المعاني ؟ قلت : نعم .
قال : فلا بأس.
وقد روى العامة الترخيص في رواية الحديث بالمعنى ، عن الأكثر ، ونقلوه عن جماعة من الصحابة منهم الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وواثلة بن الأسقع ونسبه بعضهم إلى الجمهور.
وقد استدل الصحابي واثلة ، على ذلك ، باستدلال ظريف ، لما قيل له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس فيه وهم ، ولا تزيد ولا نسيان !
قال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئا ؟ !
قال الراوي : فقلنا : نعم ، وما نحن له بحافظين جدا ، أنا لنزيد الواو والألف ، وننقص !
قال : فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم ، لا تألون حفظا ، وأنتم تزعمون أنكم تزيدونن وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عسى أن لا نكون سمعناها منه إلا مرة واحدة ، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى.
فالحديث وهو يحتوي على الأحكام الشرعية وهو ثاني مصادر التشريع في الإسلام ، مع ما لذلك من الخطورة ، التي تحتم مزيد المراقبة والاحتياط فيها إذا أن أدنى تغيير فيه يؤدي إلى تحريف الأحكام وتبديل شريعة الإسلام .
هذا الحديث إذا جاز نقله بالمعنى ، فالدعاء ، وهو ليس بتلك الأهمية قطعا لا بد أن يجوز فيه ذلك ؟ !
وإذا لم يجز ذلك في الدعاء ، والتزم بنقل نصه المأثور ، فليكن ذلك في الحديث ، وخاصة أحاديث الأحكام ، كذلك ، بطريق أولى .
والحاصل : أن روايات الدعاء هي من الحديث الشريف ، فإذا جوزنا رواية الحديث ونقله بالمعنى ، شمل روايات الدعاء أيضا .
والجواب عن هذه المشكلة ، من وجوه :
الأول : أن أحاديث المحافظة على الدعاء تخصص ما دل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، فكل حديث يجوز نقله بالمعنى إلا أحاديث الدعاء .
وهذا بناء على دخول الدعاء في الحديث ، بمعناه العام واضح لاغبار عليه ، وإلا فهو خارج تخصصا .
الثاني : أن تجويزهم لنقل الحديث بالمعنى ، إنما هو فيما لم يتعبد بلفظه من نصوص الحديث ، مما اريد به لفظه الخاص من متون الأحاديث ، حيث لا يجوز نقله بالمعنى ، بل يروى بعين لفظه ، كالخطب التي تلقى بمناسبات خاصة ، والتي يستعمل فيها أساليب إنشائية بلاغية ، وكذلك الكلمات القصار المحتوية على جوامع الحكم ، والنصائح والمواعظ المذكورة في جمل قصيرة ، مما فيه سجع معين يدل على العناية بخصوص الكلمات والألفاظ الواردة فيها ، وكذلك نصوص الأدعية المأثورة الواردة في ظرف معين من زمان أو مكان أو مناسبة خاصة ، وقد أمر الشارع بتلاوتها بعينها ، فلا يجوز تخطيها للناقل الذي يريد العلم بما أمر الشارع ، وبذلك يمتاز الدعاء عن مطلق الحديث .
الثالث : أن الحديث يتفاوت عن الدعاء بأمر جذري ، فإن الحديث إنما يرويه الراوي وينقله ناسبا معناه إلى المروي عنه ، وناقلا له عنه ، لكن الدعاء إنما يتلوه الداعي بقصد إنشاء ما يتلو من المعنى ، وقاصدا للمعاني التي في الكلام الخاص ، في إطار هذه الألفاظ المعينة ، بعنوان أنه يناجي بها ربه ، لا أنه يرويها وينقلها عن منشيئها ، وإن كان إنما أخذ نص الدعاء عنه نقلا .

4 ـ دعوة إلى ضبط الأدعية وتحقيق كتبها :
ومن مجموع ما ذكرنا تتبين صحة ما ذكره المحدث الفقيه صاحب المعالم من أن الاختلاف الذي يقع ويكثر في متون الأخبار الواردة بمجرد الأحكام ربما كان العذر فيه تسويغ الرواية بالمعنى ، وعدم انتهاء الاختلاف إلى الحد الذي يحصل به الاضطراب فيه .
وأما ما يتضمن نقل الدعوات والأذكار المأثورة ، فأي عذر للتسامح فيه ، والتقصير في ضبطه.
نعم ، إن الأمانة الروحية تدعونا إلى المحافظة على الدعاء المأثور وضبطه وحفظه عن التحريف واللحن ، فإن الدعاء من أفضل نعم الله التي ألهمها الإنسان .
وكذلك الأمانة العلمية تلزمنا المحافظة على النصوص الواردة وضبطها ، فالأخبار التي ذكرناها تدل بوضوح على عدم جواز اللحن في الدعاء ، كما تدل على لزوم الاحتفاظ بنصه كما ورد .
وأعتقد : أن ذلك يؤكد ضرورة التحقيق في كتب الدعاء لتقديم نصوص مضبوطة موثوقة للأدعية ، كي تبلغ الامة بتلاوتها ما ينشد منها من الآثار الروحية والمعنوية ، وتبلغ المقام المحمود الذي وعده الله للداعين .
مضافا إلى ما فيها من متعة تراثية حيث أن عشرات الكتب قد الفت في الدعاء ، منذ عصور الأئمة عليهم السلام وكذلك ما فيها من متع علمية ، لأن الأدعية تحتوي على مضامين عالية في مجالات العقيدة والسلوك والوجدان .
ومما يحز في القلب ما آلت إليه كتب الأدعية من إهمال وتشويه ، على أثر تصدي الجهلة لنقلها وتداولها ، وعلى أثر جشع الطابعين ـ بل الطامعين ـ في إصدار ما هب ودب مما يدر الأرباح عليهم ، غافلين ـ أو متغافلين ـ عن أن عملهم هذا اعتداء صارخ على أمر مقدس لدى الامة ، وعلى أهم وسيلة من وسائل رقيها في مجالات العقائد والأخلاق وفي مقامات السلوك والعرفان .
وهذا أيضا مما يثقل المسؤولية على كاهل المحققين الأفاضل ، والمؤسسات الثقافية ، كي تقوم بعبء هذا الأمر الهام ، وينقذوا الدعاء وكتبه من براثن هؤلاء ، ويرفعوه إلى مقامه العلمي والروحي اللائق .
فلا عذر في التقصير فيه !

5 ـ مصادر الدعاء المأثور :
إن مصادر الدعاء عند المسلمين هم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي هو أفصح من نطق بالضاد ، وأليق من اكتسى الأمجاد ، من خصه الله بوحيه فبه فاه ، وبالبلاغة حلاه ، وبمكارم الأخلاق حباه ، باعتباره الصادع بالشريعة الغراء ، والواسطة بين الأرض والسماء ، والمطلع على أسرار الخليفة ، والواقف على المجاز والحقيقة ، أعلم الناس وأعرفهم ، وأشجع الناس وأورعهم ، من لا يقاس به سواه ، ولا يعرف حقيقة مقامه إلا الله ، الذي نباه ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية .
وكذلك ابن عمه وربيبه ، ووصيه وحبيبه ، خليفته من بعده على امته ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام « مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه اخذت قواعدها ، وعلى أمثلته حذا

كل قائل وخطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، لأن كلامه عليه مسحة من العلم الإلهي ، وفيه عبقة من الكلام النبوي ».
وكذلك الأئمة الأخيار من أهل اليبت الأطهار عليهم السلام ، العلماء الأوتاد ، والزهاد الأمجاد ، والأئمة الأجواد ، الذين تحلوا من الفضائل بأحسنها ، ومن الشمائل بأجملها وامتلأوا بالعظمة فأقرها لهم العدو قبل الصديق ، فكانوا أنوارا كاشفة لسواء الطريق ، الأئمة المنتجبون بنص القرآن ، وكلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، للقيادة والإمامة ، وما روي عنهم يدل على تحقق ما قال فيهم أبوهم أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال : « وإنا لامراء الكلام ، وفينا تنشبت عروقه ، وعلينا تهدلت غصونه ».
هؤلاء هم مصادر الدعاء المأثور عندنا ، وإن ما ورد عنهم من الدعاء لأصدق شاهد ، وأقوى دليل على صدق ما قيل .
« فقد أنشأوا » كما يقول واحد من كبار العرفاء « من الدعوات الجليلة والمضامين اللطيفة ما فيه فوق طاقة البشر ، من فنون العلم بأسماء الله وصفاته ، وما يقتضيه جماله وجلاله ، وحق أدب العبودية مع كل ، فيما يناسبه مقامه وأوصافه وأحواله ، وكيفية الاستعطاف والاسترحام ، ولطيف الاستدلالات في استيجاب عفوه وكرمه وفضله ، وعرض مذلة الاعتراف عند مقدس أبواب رأفته ورحمته .
ولعمري لو كان للإنسان فكرة أو فطنة لكفاه ما صدر في الدعاء من أئمة الحق ، عن كل معجز في إثبات الرسالة والامامة » .
وقد حفظت من أدعية المعصومين عليهم السلام نماذج كثيرة ، رويت بأسانيد صحيحة ، سجلت في كتب باسم « الصحيفة » لكل واحد منهم عليهم السلام صحيفة أو اكثر .

6 ـ الدعاء والأدب العربي :
يقول الدكتور حسين علي محفوظ : « الدعاء » جانب مهم من الآداب العربية ، نسيه تاريخ الأدب ، وتجاهله الادباء ، وأغفله النقاد وكادوا يطمسون الإشارة إلى بلاغته ، على الرغم من أنه : نثر فني رائع ، واسلوب ناصع من أجناس المنثور ، ونمط بديع من أفانين التعبير ، وطريقة بارعة من أنواع البيان ، ومسلك معجب من فنون الكلام .
والحق أن ذلك النهج العبقري المعجز ، من بدائع بلاغات النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام التي لم يرق إليها غير طيرهم ، ولم تسم إليها سوى أقلامهم .
فالدعاء أدب جميل ، وحديث مبارك ، ولغة غنية ودين قيم ، وبلاغة عبقرية المجاز ، إلهية المسحة ، نبوية العبقة ، تفتر عن إيمان جم الفضائل ، وزهد دثر المحاسن ، وتواضع أبيض المحجة ، وعمل أغر الطريقة ، وتقاة عظيمة القدر .
حقا إن الدعاء يمثل واحدا من أرفع أساليب الأداء العربي في بلاغته الناصعة ، وتعبيره العذب ، وهو من أوقع الكلام في الكشف عن مكامن الضمير ، ومرادات النفس ومتطلبات الروح ، مع تطوره وإبداعه في استخدام أساليب الاستدعاء والرجاء والعتاب والاعتذار ، وفي أطوار المرونة والعنف ، والعجلة والصبر ، واليسر والعسر ، والاضطرار والرخاء .

وهذا أمر يتكفل الإفصاح عنه والبرهنة عليه ، نصوص الدعاء المأثور بشهادة المنقطعين إلى الأدب ونقده وتحليله اللفظي والمعنوي .
ومن المؤسف أن أدب الدعاء طواه إغفال الادباء ، بل تعدى إغفالهم لجانب بديعه وغريبه ونحوه واسلوبه أيضا ، بالرغم من صرف جهود واسعة في الأضعف منه والأخس من مجون الشعراء ، ولغط الأعراب في زوايا البوادي أو النوادي .
إلا أن بعض فطاحل النحو وفحول اللغة ، قد تنبهوا إلى هذا الأمر الخطير ، كابن مالك النحوي ، والمحقق الشيخ نجم الأئمة الرضي شارح « الكافية » وابن منظور الأنصاري صاحب « لسان العرب » وابن فارس صاحب « المقاييس » فقد احتجوا في مؤلفاتهم بحديث النبي وأهل البيت عليهم السلام .

هذا في مطلق الحديث ، وأما خصوص ما احتوى على الدعاء منه ، فاهتمام الشارع والمتشرعة بأمر ضبطها والمحافظة عليها ، يدفع كل الشبه المثارة حولها فلا نزاع في الاحتجاج بها في المباحث اللغوية كافة .

مراجع البحث:

1 ـ أضواء على السنة المحمدية ، لمحمود أبي رية ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة .
2 ـ بحار الأنوار ، للمجلسي محمد باقر بن محمد تقي الاصفهاني ( ت 1110 ) ، الطبعة الحديثة ، إيران ولبنان .
3 ـ الحدائق الوردية ، للمحلي ، طبع دار اسامة ، دمشق .
4 ـ خزانة الأدب ، للبغدادي عبدالقادر بن عمر ، الطبعة الاولى ، المطبعة المنيرية ، القاهرة .
5 ـ سنن الترمذي وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود .
6 ـ صحيح البخاري وصحيح مسلم .
7 ـ قواعد التحديث ، للقاسمي جمال الدين الشامي ، طبع دمشق ، سنة 1352 هـ .
8 ـ الكافي ـ الاصول ـ ، للشيخ الثقة أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي ( ت 329 ) ، دار الكتب الإسلامية ، صححه علي أكبر الغفاري ، مطبعة حيدري ، طهران .
9ـ مسند أحمد بن حنبل ، طبع مصر ، في ستة مجلدات .
10 ـ المعجم الصغير ، للطبراني .
11 ـ منتفى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان ، للشيخ حسن صاحب المعالم ( ت 1011 ) ، طبع جامعة المدرسين ، قم 1402 ، تحقيق علي أكبر الغفاري .
12 ـ نهج البلاغة ، من كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، جمع السيد الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوى ( ت 406 ) ، تحقيق صبحي الصالح ، الطبعة الاولى ، بيروت 1387 .
13 ـ وصول الأخيار إلى اصول الأخبار ، للشيخ المحقق المحدث الشيخ حسين بن
عبد الصمد الحارثي ( ت 984 ) ، تحقيق السيد عبداللطيف الكوهكمري ، مطبعة الخيام ، قم 1401 هـ .
وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .**